

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مؤسستنا البديلة ملكية للفكر الإسلامي



المؤتمر العام الخامس عشر لآكارمة آل البيت الملكية

١٨-٢٠ شوال ١٤٣١ هـ الموافق ٢٧-٢٩ أيلول / سبتمبر ٢٠١٠ م

البيئة في الإسلام

هل غاب الإحساس بالبيئة في
الوعي العربي الإسلامي؟
الأستاذ الدكتور حسن حنفي

هل غاب الإحساس بالبيئة في الوعي العربي الإسلامي؟

يضع القرآن الكريم تصوّرًا مثاليًا للعالم، العالم كما ينبغي أن يكون. وللإنسان كما ينبغي أن يكون في العالم. فالعالم هو الإنسان كمركز له. يحيط به الآخر في أسرة ومجتمع وإنسانيّة. وحول هذه الدائرة الثانية هناك العالم الطبيعي أو البيئة بلغة العصر. وهو ما سمّاه بعض الفلاسفة المحدثين في الغرب "الوجود في العالم"، وما سمّاه إخوان الصفا في تراثنا القديم الإنسان عالم صغير، والعالم إنسان كبير.

ويسهل التعرف على صورة الطبيعة في القرآن الكريم. والقرآن أصل الحديث. والاعتماد عليه يعطي الأسس الأولى لمفهوم الطبيعة. والقضية ليست معاني النصوص بل العلاقة بينها وبين واقع المسلمين. القضية هي الوعي الإسلامي بين جدل النص والواقع، لا تقريظًا للنص وحده، ولا إدانة للواقع وحده. ويمكن معرفة معنى النص عن طريق تحليل المضمون، والواقع الحالي عن طريق تحليل الخبرات الحيّة الفرديّة والجماعيّة للمسلمين. وتقابل المنهجين يعطي النتائج المرجوة لحلّ مشاكل البيئة في المجتمعات الإسلاميّة.

والبيئة مصطلح المحدثين، والطبيعة مصطلح القدماء. البيئة لفظ وافد، ترجمة للفظ الأجنبي⁽¹⁾. وأنشئ له علم خاص هو علم البيئة⁽²⁾. ليس له أصل عند القدماء. وهو إشكال فعلي في المجتمعات الصناعيّة من آثار التلوّث. وهو السبب الرئيسي لانتشار السرطان. وهو أيضًا إشكال فعلي لدينا لسبب آخر وهو نقص النظافة في مجتمع تقوم الشريعة فيه على الطهارة كشرط للصلاة، أوّل ركن فيها. وإثارة الإشكال من الوافد من أجل قراءته في الموروث، وليس في الواقع

(1).Environment, Milieu

(2).Ecology

الإسلامي وقراءته في الواقد والموروث معاً.

ولفظ الطَّبِيعَة لا يوجد في القرآن الكريم بمعنى Φύσις في اللغات القديمة. في حين يستعمل القرآن فعل "طبع" بمعنى ختم على قلوب الكافرين. والطبع هو الذي يحدّد السلوك والشخصيّة. ويستعمل القرآن لفظين آخرين "فطرة" وتعني الاستعداد الطبيعي و"صبغة" وتعني اللون أو العلامة⁽¹⁾. ومع ذلك الطَّبِيعَة حاضرة في القرآن الكريم على ستة مستويات.

الأوّل: السَّمَاء والأرض والشمس والقمر والنّجوم والكواكب والرياح والسحاب والطيّر⁽²⁾. وهو ما يستعصي على الإنسان تلوينه إلّا عن طريق غير

(1) ذكر فعل "طبع" في القرآن عشر مرات منها (وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) (التوبة : 93) وورد لفظ فطرة، ولفظ "فطر" 7 مرات منها (فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) (الروم: 30)، و"صبغ" مرتان (صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً) (البقرة : 138).

(2) ذكر لفظ "سما" 120 مرة، ولفظ "سموات" 190 مرة (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ) (البقرة : 22)، (وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) (البقرة : 164). وذكر لفظ "الأرض" 451 مرة مما يدل على أهميته منها (فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا) (البقرة : 61)، (الْمَرْتَرَاتُ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) (الحج : 63)، (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ) (يس: 36)، (الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْاسِيَ وَأَنْهَارًا) (الرعد: 3)، (فَسَقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) (فاطر: 9)، (وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) (البقرة : 27). وذكرت "الشمس" 33 مرة منها (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا) (نوح : 16)، و"القمر" 27 مرة منها (وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا) (الفرقان : 61)، و"النجم" 13 مرة منها (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ) (الحج : 18)، و"كوكب" 5 مرات منها (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا) (الأنعام : 76)، و"الريح" مفردا وجمعا 27 مرة (وَأَرْسَلْنَا الرِّيْحَ لَوْفِحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَاكُمُوهُ) (الحجر : 22)، (فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيْحُ) (الكهف : 45)، (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيْحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ) (فاطر : 9)، و"السحاب" 9 مرات منها (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيْحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ) (فاطر: 9)، و"الطيّر" 20 مرة منها (وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ) (الواقعة: 21).

مباشر، بالسُّموم التي تنقلها الرِّياح. وقد كانت موضوع علم الفلك عند القدماء. السَّماء مرتبطة بالأرض في الآية المتكررة (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ). والماء ينزل من السماء صافياً فيحيل الصحراء القاحلة الصفراء إلى أرض يانعة خضراء. والشمس دليل على قدرة الله. مصدر الطاقة والضوء للإنسان. والقمر مع الشمس آيتان على قدرة الله. والنجوم والكواكب يخضعان أيضاً لقدرته ويقسم بها. وهي مظهر من مظاهر الجمال والتأمل والهداية في الطريق ومعرفة المكان والزمان. والرياح تحمل الطير والفلك في البحر والسحاب في السماء والبذور للقاح. وهي نافعة للإنسان في أكثر الاستعمالات إلا في بعض الحالات التي تكون فيها إعصاراً مدمراً. والسحاب يحمل الماء. ومنه يسقط المطر. ومنها ينشأ الرعد والبرق. والطير أيضاً آية من آيات الله إذ كان المسيح يشكل من الطين طيراً بإذن الله. يسبح بحمده. وقد تعلم سليمان من الهدهد كما تعلم منه قابيل أن يدفن أخيه هابيل.

والثاني: الأرض والجبال والأحجار والتراب والطين والنار والدخان والحديد والذهب والفضة. وهو ما جعله القدماء موضوعاً لعلم المعادن. وهو ما يدخل في قدرة الإنسان على التلوث خاصة الطين والتلوث الزراعي والدخان الناشئ من المصانع الذي يصيب التنفس. كثر ذكر الأرض في القرآن. وهي ملك الله وحده. وهو وارثها. تطيعه وتسبح بحمده. عليها تعيش النباتات والحيوانات والطيور والبشر. وهي الأرض الخضراء لصالح البشرية، ومن ثم على البشر حمايتها من التصحر. يأتي عليها الماء من السحاب، وينبع منها من الأرض من الينابيع والآبار. وهي مكان للفعل الإنساني. أما الجبال فهي رمز الثبات والقوة. ومع ذلك فهي واعية بقدرة الله وعالمة بنهايتها يوم البعث. وفي مقابل الجبال هناك التراب رمز الهشاشة والبؤس. والطين تراب مبلل بالماء. والنار مصدر الطاقة والقوة دون أي ضمير ملكية. والضياء والنور لصالح الإنسان من الشمس والقمر والكواكب والنجوم والنار. والدخان أيضاً رمز

الهشاشة في مقابل الأرض. والحديد رمز القوة والمنفعة لصالح البشر. والذهب

والفضة في هذا العالم ثروة زائفة وفي العالم الآخر كسب واستحقاق⁽¹⁾.

والثالث: الماء والأنهار والينابيع والعيون والبحار. وهو سبب الخضرة والنماء والانتقال (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) [الأنبياء:30]. بل إن عرش الله كان على الماء. الماء هو العنصر المشترك بين كل المخلوقات. يبعث الحياة في الأرض القاحلة. يستعمل للشرب والغسل والنقل. يهطل وينزل ويسقط بقوة وكثرة، صاف وبارد ورائق وعذب. في مقابل الماء الراكد، الفاقد، الضائع، المهذور، المالح، المر، الحار. يمكن السيطرة عليه بالسدود والخزانات والقنوات. يبعث على الثروة الخضراء في كل مكان. هو مصدر الأنهار التي تشق الأرض وتكون الآبار والعيون. والبئر الجاف والعين الفارغة رمزان للموت والضياع. والإنسان قادر على تفجير الماء من الصخر كما فعل موسى

(1) ذكر لفظ "أرض" في القرآن 461 مرة منها (مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ) (البقرة:61)، (وَأَيُّهُمُ الْأَرْضُ الْأَمِيَّةُ أَحْيَيْنَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا) (يس:33)، ولفظ "جبل" 39 مرة مفردا وجمعا (تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا) (الأعراف:74)، (وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِينِينَ) (الحجر:82)، ولفظ "حجر" ومشتقاته 12 مرة (وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ) (البقرة:60)، ولفظ "تراب" 17 مرة منها (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ) (غافر:67)، ولفظ "طين" 12 مرة مثل (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ) (الأنعام:2)، ولفظ "نار" 145 مرة (فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ) (البقرة:266)، (إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا) (النمل:7)، ولفظ "حديد" 6 مرات منها (ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ) (الكهف:96)، (وَأَنَّا لَهُ أَحَدِيدٍ) (سبأ:10)، (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ) (الحديد:25)، ولفظ "ذهب" 8 مرات منها (وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقِدُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (التوبة:34)، ولفظ "فضة" 7 مرات (زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ) (آل عمران:14).

وكما وصف إقبال في "ضرب الكلیم". وصورة الجنة أنها مملوءة بالأنهار والخضرة والعيون. أما البحار فإنها رمز قدرة الله وعلمه. يسير فيها الإنسان بالفلک وهداية النجوم. ومنها يأتي السمك الطري. وقد تغضب أمواج البحر فتصبح مصدر

خطر. وفي باطن البحار الثروات كاللآلئ⁽¹⁾.

والرابع: الزرع والأشجار والنبات والوديان والمراعي والحدائق والثمرات والأزهار. وهي الطبيعة الحية التي يهبط عليها الماء فتهتز وتربو، وتنتج من كل زوج بهيج. وهي التي يفسدها الإنسان بالكيماويات ومياه الصرف الصحي، ومقابل النفايات، وروث البهائم. فالزرع من عمل الإنسان في الطبيعة كما أنه من عمل الطبيعة هو رمز الحياة. ولو كان بيد محتضر فسيلة فليغرسها قبل أن يموت. وعلى المقابر توضع النباتات وفروع الأشجار ويُرش الماء في داخلها في مصر القديمة وفي خارجها في الإسلام. الأخضر هو الذي يبقى في الأرض أما الأصفر فهشيم تذروه الرياح، واللون الأخضر هو لباس أهل الجنة.

(1) ذكر لفظ "ماء" في القرآن 63 مرة مثل (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) (البقرة: 22)، (وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَشْقَىٰ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ) (البقرة: 74). (وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) (البقرة: 164)، (سَفَّيْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ) (الأعراف: 57)، (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ) (الرعد: 17)، (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) (الأنبياء: 30)، (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فِإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ) (الحج: 5)، (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ) (النور: 45). ولفظ "نهر" ومشتقاته 59 مرة مفردا وجمعا (وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ) (البقرة: 74)، (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْهَارًا) (الرعد: 3). وذكر لفظ "ينبوع" مرتان منها (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ) (الزمر: 21)، ولفظ "عين" ومشتقاته 20 مرة منها (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) (القمر: 12). ولفظ "بحر" ومشتقاته 41 مرة (وَالْفُلُوكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ) (البقرة: 164)، (أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَّعًا لَكُمْ) (المائدة: 96).

أما الهشيم فهو رمز العدم. والزرع في الوديان والمراعي والحقول والحدائق والغابات والمحميات الطبيعية. وقد حدث الله موسى في الوادي وهو رمز السكن والاستقرار. والأشجار عامة لا يملكها أحد. والنخل يعطي الظل والتمر. والحب نموذج الحياة في نشأتها⁽¹⁾. وهو طعام حاضر وخزين كما فعل يوسف في مصر في السنوات السبع العجاف. ومن الحبوب تخرج الزيوت مثل الزيتون. وال فول والعدس والبصل محاصيل معروفة في مصر. ومن الفواكه التين والعنب. وضد ذلك القحط والجوع ونقص الأموال والثمرات والخوف⁽²⁾.

والخامس: الحيوان كالبهائم والخيل والبغال والحمير والوحوش والحشرات كالذباب والبعوض والقمل. وهي التي تحمل الأوبئة أو التي يستخدمها الإنسان في الزراعة. "فالحیوانات والكائنات الحية" هي أحد مستويات الطبيعة وليست كلها. والأنعام اسم عام يضم كل الدواب. منها الذكر والأنثى. يستعملها الإنسان للطعام والكساء والأثاث والانتقال. نبحها من أجل بقاء الإنسان دون تعذيبها أو الإضرار بها. والدواب أيضا من الأنعام ولكنها أقل

- (1) ورد لفظ "زرع" ومشتقاته 14 مرة منها (يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ (النحل: 11)، ولفظ "شجر" ومشتقاته 26 مرة منها (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ) (يس:80)، (أَنْ أَخْجِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) (النحل: 68)، ولفظ "نبت" ومشتقاته 27 مرة (أَهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأُنْبِتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (الحج: 5)، (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) (لقمان: 10)، (ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۗ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۗ ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا) (عبس: 26-28)، ولفظ "خضر" 8 مرات منها (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) (الحج: 63)، ولفظ "ثمر" ومشتقاته 24 مرة منها (كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ) (الأنعام: 141)، (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ) (البقرة: 22)، (وَلَنْبَلُوتِكُمْ بَشَىءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ) (البقرة: 155).
- (2) (وَسَبَّحَ سُبْحَانَ خُضْرٍ وَأُخْرٍ يَابِسَةٍ) (يوسف: 43، 46)، (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ) (إبراهيم: 37)، (وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحْنًا ۗ ﴿٣١﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا) (النازعات: 30-31)، (فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۗ ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَبًا) (النبا: 31-32).

وعياً. والبهائم أقل الحيوانات وعياً. ومن الأنعام الأبقار والثيران والأغنام والماعز. والجمال للأسفار. والخيل والبغال والحمير دواب للانتقال في السلم وفي الحرب. الخيل رمز للسرعة والذكاء. والبغال والحمير رمز للغباء والقبح. وقد ذكرت أيضا الكلاب والقردة والخنازير، والأفيال. كما تذكر الزواحف كالحيات والضفادع والحشرات كالنمل والعنكبوت والذباب والعقرب. وكل منها رمز إنساني. فالإنسان الذي يجري وراء حاجاته مثل الكلب الذي يتدلى منه لسانه. وابتلعت حية موسى حيات سحرة فرعون. وللنمل وللنحل مساكنهم مثل البشر. وبيت العنكبوت رمز للتهوي والضعف مثل الذبابة أو البعوضة التي لا يستطيع الإنسان أن يخلق مثلها. بل يستطيع الجراد والقمل والضفادع هزيمة الكافرين عقاباً لهم. ويستطيع الإنسان أن يأكل بعض الحيوان دون البعض الآخر من أجل تربية الإنسان على الطاعة وحفاظاً على بدنه. فالميتة والدم ولحم الخنزير ضارة بصحة الإنسان، في حين أن الطيور والأسماك والأغنام عكس ذلك. وهذا هو مقياس الحلال والحرام⁽¹⁾.

والسادس: جسم الإنسان وحاجاته المادية من طعام وشراب ومأوى وحماية ودوره في العالم في البناء والتعمير وليس في الهدم والتدمير. فالإنسان ظاهرة طبيعية. له جسده وحاجاته المادية وأفعاله في العالم. والجسد مكون من عظم ولحم ودم، سيقان وأيدي وصدر ورأس وعنق وجبهة. والرأس عيان وأنف وأذنان ولسان وعنق وشفاه، ووجنتان. وللإنسان أعضاؤه الداخلية مثل الكبد والسرة والأمعاء، والخارجية مثل الأظافر والجلد والشعر. ينشأ الإنسان

(1) ذكر لفظ "بهيمة" 3 مرات منها (أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَةً الْأَنْعَامِ) (المائدة: 1)، والوحوش مرة واحدة (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) (التكوير: 5)، والذباب مرتان (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ) (الحج: 73)، (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ) (الأعراف: 133)، (وَالْحَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً) (النحل: 8)، (كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَرَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ) (العنكبوت: 41).

في رحم الأم على مراحل، علقه فمضغة فعظمًا فلحماً. العظم يهن ويبعث من جديد. والرقبة ليست فقط العنق بل هي رمز للعبودية والحرية (فَكُ رَقَبَةٍ) [البلد:13]. والصدر لا يعني فقط أعلى البدن بل يعني أيضا الشعور أو الضمير. والجنب ليس فقط الجنب الحسي بل هو رمز للجوار. واليد ليست فقط يد البدن بل هي رمز للقوة والسيطرة والكرم والفعل في الطبيعة. والكف ليس فقط أسفل اليد بل رمزاً للإمساك بالمياه وليس بتسربها بين الأصابع. والأصابع لا توضع في الأذان حتى يسمع الإنسان. والسيقان للجري. والأقدام رمز للشجاعة والثبات. فالجسم ليس مقصوداً بذاته بل أداة للفعل في العالم. والعيون للرؤية. وهي صورة للقصاص (وَأَلْعَيْنَ بِأَلْعَيْنِ) [المائدة:45]. واللسان يعني البلاغة والفصاحة وحسن القول. والشفاه تساعد في النطق مع اللسان. والعنق مكان حساس في الجسد في التنفس أو الاختناق، في الحياة أو الموت. والوجنة أو الجبهة رمز للطاعة أو القهر. فالجسد لغة تعبر عن وضع الإنسان في العالم. ومن الأعضاء الداخلية الكبد رمز الجهاد في العالم. والبطن يزحف عليها الحيوان، وفي الإنسان بيت الداء. العسل واللبن صحة، والماء المغلي والخشب الجاف والطعام المر مرض. والأظافر والجلد والشعر من مظاهر الجسد الخارجية. الأظافر رمز للحيوان. والجلد مكان للجهاز العصبي والانفعالات الإنسانية. فالإنسان مجموعة من المظاهر الطبيعية التي يشارك فيها الحيوان. وحاجات الإنسان الطعام والشراب واللباس والمأوى. وهي أيضاً عناصر طبيعية ضد الجوع والعطش والعري والعراء. ودور الإنسان في العالم هو الإصلاح وليس الإفساد. وقد حذر جميع الأنبياء من الإفساد في الأرض مثل تدمير المحاصيل وقتل الحيوانات وتبديد الثروات الطبيعية⁽¹⁾.

(1) (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى) (طه: 118)، (وَلَنْبَلُونَكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) (البقرة: 155)، (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (النحل: 112)، (يَبْنَئُ آدَمُ فَدَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَتَكُمْ وَرِبْشًا) (الأعراف:

وقد نشأ علم الطبيعة عند القدماء من هذه المستويات الستة. وفصلوها في علم الفلك والأنواء والمعادن والنبات والحيوان والنفس وعلاقتها بالبدن وهو ما يسمى علم الإنسان. وهي ليست فقط مستويات في الطبيعة بل هي أيضا مستويات في القيمة. كل مستوى تال أعلى قيمة من المستوى السابق في تصور تراتبي للطبيعة بين الأعلى والأدنى. فالطبيعة واعية. ومستوياتها الستة درجات في الوعي حتى نصل إلى الوعي الإنساني الشامل للوعي الطبيعي بمستوياته السابقة. كان المجتمع الإسلامي القديم مجتمعاً منتصباً مؤسساً للعلوم. لذلك برزت علوم الطبيعة في علم التوحيد بعنوان "دقيق الكلام"، وفي علوم الحكمة بعنوان "الطبيعيات"، وفي أصول الفقه بعدة عناوين "المصالح المرسله"، "المنافع والمضار". فالطبيعة ليست شيئاً مادياً بل قيمة معنوية.

والسؤال للمعاصرين: لماذا لم يستمر هذا العلم الطبيعي القديم في حياتنا المعاصرة وعند أجيالنا الحديثة؟ لماذا اعتمدنا في علومنا الطبيعية على الوافد الغربي وتركنا الطبيعة لدينا موضوعاً للإهمال، وجعلناها مكاناً لإلقاء مخلفات المنازل والمصانع فلوثنا الأرض والمياه والهواء بل وبدن الإنسان حتى أصيب بالأمراض الناتجة عن تلوث البيئة؟ لماذا تصورنا أن مشاكل البيئة ناتجة من السماء، ثقب الأوزون مثلاً، وليست من نفايات الأرض؟

قد يكون السبب اقتصادياً خالصاً. فالإنسان في حاجة إلى طعام وشراب

(26)، (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَىٰ حِينٍ) (النحل: 80)، (أَسْكُنُوا الْأَرْضَ) (الإسراء: 104)، (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ) (الأعراف: 10)، (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) (البقرة: 11)، (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا) (الأعراف: 56)، (وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسِدَ) (البقرة: 205)، (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) (الروم: 41)، (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ) (الرعد: 17).

ومسكن قبل أن يكون في حاجة إلى رعاية للطبيعة. يربي الدجاج في الحدائق العامة. ويلقي بمخلفات المنازل في مياه الصرف الصحي. ويقدم الأكواخ فوق الهضاب وفي الأزقة وعلى ضفاف الأنهار وفي الوديان. فالإنسان أولى بالبقاء من المحافظة على البيئة. وفي المجتمعات الصناعية المتقدمة الغاية الربح وليس الحفاظ على البيئة. فتلقى مخلفات المصانع في الأنهار. وتموت الأسماك. فالصيد متوافر في البحار والمحيطات التي أصابها التلوث هي الأخرى بانهيار آبار النفط في قاع الخلجان.

وقد يكون السبب اجتماعيًا. ففي الدول الغنية النظافة فقط في الشوارع الكبرى وفي الأحياء الراقية. أما في الأزقة والحارات حيث يسكن المهاجرون والملونون فالنفايات في كل مكان، لا فرق بين الأطفال والكلاب والقطط، الحية أو الميتة. وقد يرمي قائد السيارة الفارحة بمخلفاته من النافذة في الطريق العام. وقد يبصق في الهواء بدلاً من المنديل. وأسوأ دورات مياه هي التي توجد في المجتمعات الإسلامية بالرغم من قيم الطهارة وضرورة الوضوء قبل كل صلاة. وتستدعي النظم السياسية شركات النظافة الأجنبية لتقوم بتنظيف المطارات لاستقبال المسافرين خاصة الأجانب. والعامة تتبول في الطرقات وعلى الحوائط. ودورات مياه الرؤساء والمديرين والعمداء وكبار الضباط أنظف من دورات مياه المرؤوسين والموظفين والطلاب والجنود. فالنظافة مرتبطة بالطبقة الراقية، ولكنها في الطبقات الدنيا من الكماليات.

والأهم هو السبب الثقافي أو الفكري، تصور الطبيعة في الوعي الجمعي، وعلاقة الإنسان بالعالم. فقد نشأت قضية تلوث البيئة في الغرب لأنه اعتبر الإنسان سيد الطبيعة، وأن الطبيعة ليس لها خالق، وأنها في خدمة الإنسان. يفعل بها الإنسان ما يشاء. قطع أشجار غاباتها، واصطيد حيواناتها، وإلقاء مخلفات المصانع في الأنهار ودفن النفايات النووية في صحراء الدول الفقيرة، وكثير من الأمراض المزمنة في الغرب نتيجة لتلوث الهواء والمياه والخضروات واللحوم.

فقد تحولت الطبيعة إلى صناعة، والفيزياء إلى كيمياء. وأصبح العلم قادرًا على خلق طبيعة جديدة بديلة عن الطبيعة القديمة، وصنع حياة جديدة بدلاً من الحياة القديمة. وهو ما تواجهه منظومة القيم الإسلامية ودورها في تقديم حلول لمشكلات البيئة المعاصرة.

ولا تستطيع القوانين وحدها حماية البيئة إلا نسيبًا. فما يدمره الإنسان بيد لا يستطيع بناءه باليد الأخرى. ولا تستطيع الصناعة أن تحيي ما مات في الطبيعة. الأهم هو تغيير تصورات العالم، وعلاقة الإنسان بالطبيعة، وإيجاد نموذج آخر غير "الإنسان سيد الطبيعة" الذي عليه قام العلم الغربي. في اليابان مثلاً الطبيعة رؤية جمالية، ورود وأزهار وألوان وتناسق وانسجام. وكل ياباني مسؤول مسؤولية فردية وتلقائية عن المنطقة التي يسكن فيها من الجهات الأربع، وعن تنظيم مخلفات منزله، كل نوع في الصندوق المخصص له: الجرائد، الزجاجات، البلاستيك، "الكانز". فالنظافة مسؤولية الفرد وليست مسؤولية الدولة إلا في إزاحة الثلوج وإغاثة الكوارث.

ولدينا، الطبيعة مخلوقة، ولها خالق⁽¹⁾. ومع ذلك لا نعي الخلق، وليس لدينا الوعي بالبيئة اللازم للحفاظ عليها. قلصنا الدين في الشريعة، وحصرننا الشريعة في السلوك الفردي. وتركنا الدين كتصور كلي عام للإنسان في العالم، وعلاقة الفرد بالآخرين، وبالطبيعة التي يعيش فيها. واستبدلنا بهذا الوعي البيئي الوعي بفناء العالم، وأن الإنسان فيه مجرد عابر سبيل، على راحلة. أتى إلى عالم الفناء كي يغادره إلى عالم البقاء. العمل الصالح مجرد الإحسان والشفقة بالآخرين وليس احترام الطبيعة والعمل فيها. والشريعة الإسلامية ليست فقط فردية بل أيضا جماعية وطبيعية. تنظم علاقة الفرد بنفسه وبالآخر وبالطبيعة. قلصناها في الحلال والحرام، وفي الحرام أكثر. وضاع منا الإحساس بالطبيعة وبجمال الطبيعة (فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْتَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) [النحل:6]. والخلق من الخلق أي أن الخلق سلوك وهو الخلاق⁽²⁾.

ويكشف فعل "سخر" عن العلاقة بين الإنسان والله والطبيعة⁽³⁾. فقد سخر الله الطبيعة لصالح الإنسان. فالله سخر الشمس والقمر لصالح الإنسان، الشمس بالنهار للدفع والطاقة، والقمر بالليل للنور والضياء⁽⁴⁾. وسخر البحر للانتقال عبر السفن وصيد الأسماك للطعام. وسخر الأنهار للري والشرب⁽⁵⁾. وسخر كل

(1) ذكر لفظ "خلق" ومشتقاته حوالي 260 مرة منها (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) (البقرة: 29).

(2) (أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ) (آل عمران: 77)، (إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ) (الشعراء: 137)، (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم: 4).

(3) ذكر لفظ "سخر" في القرآن 22 مرة.

(4) (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) (الرعد: 2)، (وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ) (إبراهيم: 33)، (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَيَّ) (لقمان: 29)، (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَيَّ) (فاطر: 13).

(5) (وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) (إبراهيم: 32)، (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفَلَكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ) (الجاثية: 12)، (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا) (النحل: 14)،

ما في الأرض لمنفعة الإنسان⁽¹⁾. وسخر الجبال لاستخراج المعادن⁽²⁾. وسخر الريح للطائرات⁽³⁾. والتسخير ليس هو السيادة في الشعار الغربي "الإنسان سيد الطبيعة". فالتسخير طاعة لله.

والخلاصة:

- 1- ليست الطبيعة شيئاً مادياً بل رؤية حضارية تحدد موقف الإنسان منها. فالطبيعة إنسانية كما أن الإنسان كائن طبيعي. فتدمير الإنسان للطبيعة ضد الطبيعة وضد الإنسان في آن واحد.
- 2- والطبيعة في علاقة مع الله كقيمة مطلقة. الطبيعة مخلوقة ودليل على صفاته.
- 3- والطبيعة بما أنها مخلوقة فهي حادثة، عرضية وفانية. ومع ذلك فهي ميدان لفعل الإنسان، وامتحان لحياته، وجهاد فيها من أجل معرفة قوانينها والسيطرة عليها بعقله وإرادته.
- 4- ومصير الحياة الإنسانية محدود بهذا الجهد. وسعادته وخلوده مشروطان بنجاحه في هذا الامتحان.
- 5- ومسؤولية الإنسان تحمي الطبيعة من الفساد والتبديد والتلوث والإفساد. وتمتد هذه المسؤولية إلى كل العالم وليس فقط إلى الجماعات الإنسانية.

(وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّاتَهَرَ) (إبراهيم: 32).

- (1) (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ) (الحج: 65)، (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) (لقمان: 20)، (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ) (الجاثية: 13).
- (2) (وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ) (الأنبياء: 79)، (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُنُقِ وَالْإِشْرَاقِ) (ص: 18).
- (3) (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ) (ص: 36)، (سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ) (الزخرف: 13).

6- فَقَدَ الْعَالَمُ الْإِسْلَامِي لِلْأَسْفِ، هَذِهِ الرَّؤْيَا الْحَضَارِيَّةُ فِي الْقُرُونِ السَّبْعَةِ

الأخيرة بعد نهضته الحضارية في القرون السبعة الأولى. ووقع الوعي الإسلامي في تصور لاهوتي مركزي يهمل الطبيعة ويجعلها فانية لا قيمة لها، غير جديرة بالحياة فيها.

7- وقد انتقل التصور الإسلامي للطبيعة في القرون السبعة الأولى إلى الوعي الأوروبي في عصر التنوير خاصة في فرنسا في القرن الثامن عشر، وفي العصر الرومانسي في القرن التاسع عشر خاصة في ألمانيا. ويمكن استعادته من جديد لحل مشاكل البيئة المعاصرة سواء في الوعي الأوروبي أو في الوعي الإسلامي⁽¹⁾.

(1) Hassan Hanafi: Human Subservience of Nature, an Islamic Model, Islam in the Modern World, Vol. I Religion, Ideology & Development, Dar Kebaa Bookshop, Cairo, Egypt 2000, pp.356-400.